

سورة عبس مكية
وآياتها ثنتان وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القولُ في تأويلِ قوله تعالى :

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ
فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾

يعني تعالى ذكره بقوله « عَبَسَ » : قبضَ وجهه تَكْرُهًا ، و« تَوَلَّى » يقول : وأعرض « أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى »
يقول : لأنَّ الأعمى جاءه . وَذَكَرَ أَنَّ الْأَعْمَى الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، هُوَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ، عَوْتَبُ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبَبِهِ .

عن عائشة قالت : أُنْزِلَتْ « عَبَسَ وَتَوَلَّى » فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ . قَالَتْ : أَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ يَقُولُ : أُرْشِدْنِي . قَالَتْ : وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ .
قَالَتْ : فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرِضُ عَنْهُ ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ ، وَيَقُولُ : أَتَرَى بَمَا أَقُولُهُ بَأْسًا ؟
فَيَقُولُ : لَا ، فَفِي هَذَا أَنْزَلَتْ « عَبَسَ وَتَوَلَّى » ^١ .

وقوله : « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى » يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : وما يدريك يا محمد ،
لعل هذا الأعمى الذي عبستَ في وجهه يزكَّى : يقول : يتطهر من ذنوبه .

وقوله : « أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى » يقول : أَوْ يَتَذَكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى : يعني يعتبرُ فينفعه الاعتبارُ
والاعتاظُ . والقراءةُ عَلَى رَفْعٍ « فَتَنْفَعَهُ » عَطْفًا بِهِ عَلَى قَوْلِهِ « يَذَّكَّرُ » ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَاصِمِ النَّصَبِيِّ فِيهِ
وَالرَّفْعُ ، وَالنَّصَبُ عَلَى أَنْ تَجْعَلَهُ جَوَابًا بِالْفَاءِ لِـ « لَعَلَّ » .

القولُ في تأويلِ قوله تعالى :

¹ ورواه الترمذي بسند صحيح ، كما في « صحيح سنن الترمذي » ل محمد ناصر الدين الألباني (١٢٦٣) ، حديث رقم (٢٦٥١).

أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ
جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى بِمَالِهِ ، فَأَنْتَ لَهُ تَتَعَرَّضُ ، رَجَاءً أَنْ يُسَلِّمَ .

وقوله : « وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى » يقول : وَأَمَّا هَذَا الْأَعْمَى الَّذِي جَاءَكَ سَعِيًّا ، وَهُوَ يَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ « فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى » يقول : فَأَنْتَ عَنْهُ تُعْرِضُ ، وَتَشَاغَلُ عَنْهُ بغيرِهِ وَتَغْفَلُ .
القول في تأويل قوله تعالى :

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾
بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : « كَلَّا » ما الأمرُ كما تفعلُ يا محمد ، من أن تعبسَ في وجه من جاءك يسعى وهو يخشى ، وتتصدى لمن استغنى ، « إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » يقول : إِنَّ هَذِهِ الْعِظَةُ وَهَذِهِ السُّورَةُ تَذْكِرَةٌ : يقول : عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » يقول : فَمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ذَكَرَهُ ، يقول : ذَكَرَ اللَّهُ تَنْزِيلُ اللَّهِ وَوَحْيِهِ ، وَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ « إِنَّهَا » لِلسُّورَةِ ، وَفِي قَوْلِهِ : « ذَكَرَهُ » لِلتَنْزِيلِ وَالْوَحْيِ . « فِي صُحُفٍ » يقول : إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ « فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ » يعني في اللوح المحفوظ ، وهو المرفوعُ المطهَّرُ عند الله .
وقوله : « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ » يقول : الصُّحُفُ الْمُكَرَّمَةُ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ، جَمْعُ سَافِرٍ .
واختلف أهل التأويل فيهم ما هم ، فقال بعضهم : هم كتبة .

وقال آخرون : هم القراء .

وقال آخرون : هم الملائكة .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب : قول من قال : هم الملائكة الذين يسفرون بين الله ورسوله بالوحي ؛ وسفيرُ القوم : الذي يسعى بينهم بالصلح ، يُقال : سفرت بين القوم : إذا أصلحت بينهم ؛ ومنه قول الشاعر :

وما أدعُ السفارةَ بين قومي * وما أمشي بغشٍّ إن مشيتُ

وإذا وَجَّهَ التَّأْوِيلُ إلى ما قلنا ، احتملَ الوجهَ الذي قاله القائلونَ : هم الكتبةُ ، والذي قاله القائلونَ : هم القراءُ ، لأنَّ الملائكةَ هي التي تقرأُ الكتبَ ، وتَسْفِرُ بينَ الله وبين رسله .
وقوله : « كِرَامٍ بَرَرَةٍ » والبررةُ : جمعُ بارٍّ ، كما الكفرةُ جمعُ كافرٍ ، والسحرةُ جمعُ ساحرٍ ، غير أن المعروفَ من كلامِ العربِ إذا نطقوا بواحدةٍ أن يقولوا : رجلٌ برٌّ ، وامرأةٌ برَّةٌ ، وإذا جمعوا رثوه إلى جمعِ فاعلٍ ، كما قالوا : رجلٌ سريٌّ ، ثم قال في جمعه : قومٌ سُرَاءٌ ، وكانَ القياسُ في واحديه أن يكونَ سارياً .
وقوله : « قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ » يقولُ تعالى ذِكْرَهُ : لِعِنِ الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ مَا أَكْفَرَهُ ! وفي قوله « أَكْفَرَهُ » وجهان ، أحدهما : التعجبُ من كُفْرِهِ ، مع إحسانِ اللهِ إليه وأيديهِ عنده ، والآخَرُ : ما الذي أَكْفَرَهُ ، أي أيُّ شيءٍ أَكْفَرَهُ ؟

القولُ في تأويلِ قوله تعالى :

مِنَ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾

يقولُ تعالى ذِكْرَهُ : مِن أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَ الْإِنْسَانَ الْكَافِرَ رَبُّهُ حَتَّى يَتَكَبَّرَ وَبِتَعْظَمَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَالْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِهِ ؟ ثم بَيَّنَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الَّذِي مِنْهُ خَلَقَهُ ، فقال : « مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ » أحوالاً : نُطْفَةٌ تَارَةٌ ، ثم علقتهُ أُخْرَى ، ثم مُضْغَةً ، إلى أن أتت عليه أحواله ، وهو في رَحِمِ أُمِّهِ « ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ » يقولُ : ثُمَّ يَسْرَهُ للسبيلِ ، يعني للطريقِ .

واختلفَ أهلُ التَّأْوِيلِ فِي السَّبِيلِ الَّذِي يَسْرَهُ لَهُ ، فقال بعضهم : هو خُرُوجُهُ مِنْ بطنِ أُمِّهِ .

وقال آخرونَ : بل معنى ذلك : طريقِ الحقِّ والباطلِ ، بَيَّنَّاهُ لَهُ وَأَعْمَلْنَاهُ ، وَسَهَّلْنَا لَهُ الْعَمَلَ بِهِ .

وأولى التَّأْوِيلِينَ فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ : قولُ مَنْ قال : ثُمَّ الطَّرِيقُ ، وهو الخُرُوجُ مِنْ بطنِ أُمِّهِ يَسْرَهُ . وإنما قلنا ذلك أولى التَّأْوِيلِينَ بِالصَّوَابِ ، لأنَّهُ أَشْبَهَهُمَا بِظَاهِرِ الْآيَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ مِنَ اللَّهِ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا عَنْ صِفَتِهِ خَلْقِهِ ، وَتَدْبِيرِهِ جِسْمَهُ ، وَتَصْرِيفِهِ إِيَّاهُ فِي الْأَحْوَالِ ، فَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ أَوْسَطُ ذَلِكَ نَظِيرَ مَا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ .

وقوله : « ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ » يقولُ : ثم قبضَ رُوحَهُ ، فَأَمَاتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ . يعني بقوله « أَقْبَرَهُ » : صَيَّرَهُ ذَا

قَبْرٍ ، وَالْقَابِرُ : هو الدافنُ المَيِّتِ بِيَدِهِ . وَالْمَقْبِرُ : هو الله ، الَّذِي أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يَقْبُرُوهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَصَيَّرَهُ ذَا قَبْرٍ .

وقوله: « ثم إذا شاء أنشره » يقول: ثم إذا شاء الله أنشره بعد مماته وأحياه، يُقال: أنشر الله الميت بمعنى: أحياه، ونَشَرَ الميتُ بمعنى حيي هو بنفسه.

وقوله: « كلاً لما يقض ما أمره » يقول تعالى ذكروه: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض ربّه.

القول في تأويل قوله تعالى:

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذكروه: فلينظر هذا الإنسان الكافر المنكر توحيد الله إلى طعامه كيف دبره؟

وقوله: « أنا صببنا الماء صباً » يقول: أنا أنزلنا الغيث من السماء إنزالاً، وصببناه عليها صباً. « ثم شققنا الأرض شقاً » يقول: ثم فتقنا الأرض، فصدعناها بالنبات « فأنبتنا فيها حباً »: حب الزرع، وهو كل أخرجته الأرض من الحبوب، كالخنطة والشعير وغير ذلك « وعنباً » يقول: وكرم عنب. « وقضباً » يعني بالقضب: الرطبة، وأهل مكة يُسمون القَتَّ القضب.

وقوله: « وزيتوناً » وهو الزيتون الذي منه الزيت، « ونخلاً، وحدائق غلباً »: وقد بينا أن الحديقة البستان الخوط عليه. وقوله « غلباً » يعني: غلاظاً، ويعني بقوله « غلباً » أشجاراً في بساتين غلاظ. والغلب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة من الرجال، ومنه قول الفرزدق:

عوى فإثار أغلب ضيعمياً* فويل ابن المراغة ما استثارا

القول في تأويل قوله تعالى:

وَفَكَهَةَ وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهُهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهُهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾

يقولُ تعالى ذِكْرَهُ : وفاكهة : ما يأكله الناسُ من ثمارِ الأشجارِ ، والأبُّ : ما تأكله البهائمُ من العُشبِ والنباتِ .

وقوله : « متاعاً لكم » يقولُ : أنبتنا هذه الأشياءَ التي يأكلها بنو آدمَ متاعاً لكم أيها الناسُ ، ومنفعةٌ تتمتعونَ بها ، وتتفعمونَ ، والتي يأكلها الأنعامُ ، لأنعامِكُم ، وأصلُ الأنعامِ الإبلُ ، ثم تُستعملُ في كلِّ راعيةٍ .

وقوله : « فإذا جاءتِ الصَّاحَّةُ » ذُكِرَ أَنَّها اسمٌ من أسماءِ القيامةِ ، وأحسبُها مأخوذةٌ من قَوْلهم : صاخَ فلانٌ لصوتِ فلانٍ : إذا استمعَ له ، إلا أنَّ هذا يقالُ منه : هو مُصيحٌ له ، ولعلَّ الصوتَ هو الصاخُ ، فإن يكونَ ذلكَ كذلكَ ، فينبغي أن يكونَ قيلَ ذلكَ لنفخةِ الصُّورِ .

وقوله : « يَوْمَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه » يقولُ : فإذا جاءتِ الصَّاحَّةُ ، في هذا اليومِ الذي يَفِرُّ فيه المرءُ من أخيه . ويعني بقوله يَفِرُّ من أخيه : يفرُّ عن أخيه « وأمهُ وأبيه وصاحبتهُ » : يعني زوجته التي كانت زوجته في الدنيا « وبنيه » حذراً من مطالبتهم إياه بما بينه وبينهم من التبعاتِ والمظالمِ .

« لكلِّ امرئٍ يومئذٍ شأنٌ يُغنيه » يعني من الرجلِ وأخيه وأمهُ وأبيه ، وسائرٍ من ذُكِرَ في هذه الآيةِ ، « يومئذٍ » يعني يومَ القيامةِ إذا جاءتِ الصَّاحَّةُ يومَ القيامةِ « شأنٌ يُغنيه » يقولُ : أمرٌ يُغنيه ، ويُشغله عن شأنٍ غيره ٢ .

وقوله : « ووجوهٌ يومئذٍ مُسْفرةٌ » يقولُ تعالى ذِكْرَهُ : ووجوهٌ يومئذٍ مشرقةٌ مضيئةٌ ، وهي وجوهُ المؤمنينَ الذين قد رضيَ اللهُ عنهم ، يُقالُ : أسفَرَ وجهُ فلانٍ : إذا حسنَ ، ومنه أسفَرَ الصبحُ : إذا أضاء ، وكلُّ مُضيءٍ فهو مُسْفِرٌ ؛ وأما سفَرَ - بغيرِ ألفٍ - فإنما يُقالُ لِلمرأةِ إذا أَلقتْ نقابها عن وجهها أو بُرِّفَعها . يقالُ : قد سَفَرَتِ المرأةُ عن وجهها ، إذا فعلتْ ذلكَ ، فهي سافِرٌ .

قوله : « ضاحكةٌ » يقولُ : ضاحكةٌ من السرورِ بما أعطها اللهُ من النعيمِ والكرامةِ ، « مُستبشرةٌ » لما تُرجو من الزيادةِ .

وقوله : « ووجوهٌ يومئذٍ غيِّرةٌ » يقولُ تعالى ذِكْرَهُ : ووجوهٌ وهي وجوهُ الكفارِ يومئذٍ عليها غيِّرةٌ .

² أخرج الحاكم في مستدركه (٢٩٩٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تحشرون حفاة عراة غرلاً . فقالت زوجته : أينظر بعضنا إلى عورة بعض ؟ فقال : يا فلانة « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجه .

وقوله: « تَرَهَّقَهَا قَتْرَةٌ » يقول: يَغْشَى تلك الوجوه قَتْرَةٌ، وهي العَبْرَةُ. قال ابنُ زيدٍ في قوله « تَرَهَّقَهَا قَتْرَةٌ » قال: هذه وجوهُ أهلِ النارِ؛ قال: والقَتْرَةُ مِنَ العَبْرَةِ، قال: وهما واحدٌ؛ قال: فأما في الدنيا فإنَّ القَتْرَةَ: ما ارتفعَ، فَلَحِقَ بالسَّماءِ، ورفعتَه الرِّيحُ، تُسَمِّيهِ العَرَبُ القَتْرَةَ، وما كانَ أسفلَ في الأرضِ فهو العَبْرَةُ.

وقوله: « أولئك هم الكفرة الفجرة » يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذينَ هذه صفتُهُم يومَ القيامةِ هم الكفرةُ بالله، كانوا في الدنيا الفجرةَ في دينهم، لا يُبالونَ ما أتوا به من معاصي الله، وركبوا من محارمِهِ، فجزاهم اللهُ بسوءِ أعمالِهِم ما أخبرَ به عبادهُ.

آخر تفسير سورة عبس